العدد ٢٠٠٢/١٣

الأحد ٣١ آذار

الأحد الثاني من الصوم

أحد القديس غريغوريوس بالاماس

تذكار الشهيد في الكهنة ايباتيوس

اللحن الثاني

إنجيل السَحَر العاشر

الرسالة

(عبرانيين ١: ١٠–١٤؛ ١:٢–٣)

أنتَ يا ربُّ في البدءِ أَسَّستَ الأرضَ والسمواتُ هي صُنعُ يدَيْك* وهي تزولُ وأنتَ تبقى وكلُّها تَبلى كالثوبِ* وتَطويها كالرِداءِ فتتغيَّرُ وأنتَ أنتَ وسنوكَ لن تَفنى* ولِمَن مِنَ الملائِكةِ قالَ قطُّ اجلِسْ عن يميني حتَّى أجعلَ أعداءَكَ مَوطِئًا لقدمَيْك* أَليسوا جميعُهم أرواحًا خادِمةً تُرْسَلُ للخدمةِ من أجلِ الذينَ سيَرِثون الخلاص* فلِذلكَ يجبُ علينا أن نُصغِيَ إلى ما سمِعناهُ إصغاءً أشدَّ لئَلاَّ يَسرَبَ من أذهانِنا* فإنَّها إن كانَتِ الكلِمَةُ التي نُطِقَ بها على ألسِنَةِ ملائِكةٍ قد ثَبتت وكلُّ تعدٍّ ومعصيةٍ نالَ جزاءً عدلاً* فكيفَ نُفلِتُ نحنُ إن أهملنا خلاصًا عَظيمًا كهذا قد نُطِقَ بهِ على لِسانِ الربِّ أولاً ثمَّ ثبَّتَهُ لنا الذينَ سَمِعوهُ.

الإنجيل

(مرقس ٢: ١–١٢)

في ذلك الزمان دخلَ يسوعُ كفْرَناحومَ وسُمع أنَّهُ

القديس غريغوريوس بالاماس

تعيّد الكنيسة المقدسة في الأحد الثاني من الصوم، وفي الرابع عشر من تشرين الثاني، لأحد ألمع أنوارها هو القديس غريغوريوس بالاماس رئيس أساقفة سالونيك، الذي عاش في القرن الرابع عشر معلّمًا للعقائد الإلهية وداحضًا مناوئي الروحانية الأرثوذكسية القائلة بتألّه الإنسان عبر التنقية والإستنارة. فقد ظهر في تلك الآونة مفكرون، أبرزهم الفيلسوف الإيطالي برلعام، نادوا بالفلسفة والعلوم الدنيوية سبيلاً وحيدًا إلى معرفة الله،وتمادوا إلى حد اتهام الروحانية الشرقية بالجهل، لا سيما الهدوئية القائلة بالصلاة القلبية المستمرة وإشراك الجسد في الصلاة. فكان أن هبّ قديسنا مدافعًا بسلاح الروح القدس، بالوعظ والتأليف، عن إمكانية معاينة النور الإلهي غير المخلوق، وصولاً إلى التأله الذي هو الإتحاد الكامل بالمسيح، من خلال اليقظة الدائمة والتنقية بالصلاة والأسرار الإلهية.

وفّق القديس في كتاباته بين تعالي الجوهر الإلهي تعاليًا مطلقًا، وخبرة المؤمنين الروحية لله وإحساسهم به خبرة واقعية لا لبس فيها. فالله، بفضل محبّته للبشر، يجعل نفسه معروفًا من خلال «قوى» غير مخلوقة نابعة من جوهره.

من أبرز مؤلفاته دفاع من ثلاث ثلاثيات، يفند فيه أخطاء منتقدي الهدوئية ويوضح عقيدة التأله بشكل رائع. نشير إلى أن هذا الدفاع موجود في مكتبتنا العربية صادرًا عن رهبنة دير القديس جاورجيوس في دير الحرف. سوف نحاول في ما يلي إيجاز ما أمكننا من تعليم هذا الأب اللامع وفكره اللاهوتي، وهو منارة الأرثوذكسية وكوكب الرأي القويم، كما ترنم له الكنيسة.

+ **سقوط الإنسان:** الإنسان مخلوق على صورة الله، لكنه بعصيانه شوّه هذه الصورة فيه، فانصدعت وحدته بالخالق وابتعد بالفعل عينه عن ينبوع الحياة ومصدر الكمال، فصار واقعًا تحت سلطان الخطيئة والموت. بيد أن الحب الإلهي بقي، بالرغم من حياة الخطيئة، يعمل في الإنسان خالقًا في روحه حنينًا لا يخبو إلى غبطة النعيم الإلهي التي من أجلها

خلقه الله. هذا الحنين عينه هو مصدر توق الإنسان الدائم، ولو بغير وعيه، إلى القداسة. بتعبير آخر، الإنسان أمسى مريضًا بسبب ابتعاده عن المسار الإلهي، وعلامات هذا المرض ميل الإنسان إلى دسائس الشرير التي تضر روحه وتزيد من تصدّع صورة الله فيه.

+ **تجديد صورة الله في الإنسان:** باقتباله الطبيعة البشرية كما هي، وبذبيحته الفدائية على الصليب، ردّ المسيح الكلمة، الإله التام والإنسان التام، على العصيان بالطاعة، فجدد صورة الله في الإنسان وفتح له باب العودة إلى الشركة الإلهية التي كان ينعم بها قبل السقوط. صار المسيح إنسانًا ليصير الإنسان،بالنعمة، إلهًا، مشتركًا في القوى الإلهية غير المخلوقة، لا في الجوهر الإلهي الذي يسمو على كل فهم أو استيعاب. بفداء المسيح، أصبح الإنسان مدعوًا ليستحيل إلهًا بنعمة الله وعطية التبني. هذا التأله الذي حكى عنه بالاماس يصار إليه بتنقية الذات من ادران الخطيئة، وصولاً إلى الشفاء الناجز الذي هو استعادة الصورة الإلهية، فيستحيل الكيان برمته نورانيًا، على ما أرانا الرب يسوع على جبل ثابور، ويوم أشرق من القبر غالبًا قدرات الموت وسلطانه. ربنا يسوع وضع أمام ناظرينا، بالكلمة والمثال، كل الوسائط اللازمة لشفائنا.

+ **وسائط الشفاء الروحي:** إذا أراد الإنسان أن يجدد صورة الله فيه وأن يعود إلى المسار الإلهي الموضوع أصلاً له، وهو أن يصل إلى ملء قامة المسيح، عليه أن يتبنى تعاليم السيد وأن يقتدي بحياته في كل شيء. متزوجًا كان أم متبتلاً، على الإنسان أن يتمسك بالطهارة نفسًا وجسدًا، أن يبذل نفسه بفرح في سبيل الآخر، وأن يحيا الحب بلا انقطاع. الإقتداء بالمسيح يعني تغيّر الحياة جذريًا، أي التحول بوعي وثبات من حياة الإثم إلى حياة الفضيلة. هذا يعني أيضًا أن ينمّي الإنسان بكل كيانه بذار الحنين الكامن في قلبه ويحيا حياة الدهر الحاضر على أنها ليست سوى معبر تمهيدي لحياة الملكوت الذي لا يزول. متى تمكّن المؤمن من أن يتعاطى مع أشياء الحياة بذهن مركز على الفردوس، تمتلىء نفسه من السلام الذي لا يتأثر بالأهواء مهما تنوّعت، صالحة كانت أم ضارة.

كيف تُعاش هذه الحياة عمليًا؟ يعلّمنا القديس غريغوريوس بالاماس أن نلجأ إلى ممارسة الأسرار الكنسية، ولا سيما الاعتراف المنتظم والمناولة المتواترة، لمعالجة ضعفنا البشري المائل إلى أفعال الشرير، ولمساعدتنا على إعادة الذهن إلى القلب بالتنقية والتطهير، بعد أن انفصل عنه بفعل الخطيئة. والقلب هو بحسب تعليم القديس مسكن الروح القدس، ولا مكان فيه لنوايا الشر وأفكاره. تطهير الذهن وإعادته إلى القلب يكونان إذًا، بضبط الأفكار والنوايا، بممارسة الأسرار الشافية، وبالترداد الدائم وغير المنقطع للصلاة القلبية: «ربي يسوع المسيح، يا ابن الله الحي، إرحمني أنا الخاطىء»، وإشراك الجسد فيها من خلال ملازمتها للتنفس. هذا الجهاد المتكامل ينزّل على الذهن النور الإلهي العقلي غير المخلوق، فيتّحد نورا القلب والذهن وتتجلى صورة الله على مرآة القلب، مسكن الروح القدس ومكان راحته. كلمات ما بارحت شفتي القديس غريغوريوس بالاماس يومًا: «ربي،أضىء ظلمتي».

ضبط الأفكار يؤول إلى معاينة مفاعيل الخطيئة بوضوح، فيتولّد لدى المؤمن حزن روحي عميق، لكنه

في بيتٍ* فللوقتِ اجتمعَ كثيرون حتَّى إنَّهُ لم يعُدْ موضعٌ ولا ما حولَ البابِ يَسَعُ. وكانَ يخاطبهم بالكلمة* فأتوا إليهِ بمخلَّعٍ يحملُهُ أربعةٌ* وإذ لم يقدروا أنْ يقتربوا إليهِ لسببِ الجمعِ كشفوا السقفَ حيثُ كان. وبعد ما نَقَبوهُ دلَّوا السريرَ الذي كان المخلَّعُ مضطجعًا عليهِ* فلمَّا رأى يسوعُ إيمانَهم قال للمخلَّعِ يا بُنيَّ مغفورةٌ لك خطاياك* وكان قومٌ مِنَ الكتبةِ جالسين هناك يفكّرون في قلوبِهم ما بالُ هذا يتكلَّم هكذا بالتجديف. مَن يقدِر أنْ يغفِرَ الخطايا إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ* فللوقت علمَ يسوعُ بروحِهِ أنَهم يفكِّرون هكذا في أنفسِهم فقال لهم لماذا تفكِّرون بهذا في قلوبكم* ما الأيسرُ أنْ يُقالَ مغفورةٌ لك خطاياك أم أنْ يُقالَ قُمْ واحمِلْ سريرَك وامشِ* ولكنْ لكي تعلَموا أنَّ ابنَ البشر لهُ سلطانٌ على الأرض أن يغفِرَ الخطايا (قال للمخلَّع) لك أقول قُمْ واحملْ سريرَك واذهبْ إلى بيتك* فقام للوقتِ وحملَ سريرَهُ وخرجَ أمامَ الجميعِ حتَّى دَهِشَ كلُّهم ومجَّدوا اللهَ قائلين ما رأينا مثلَ هذا قطُّ.

تأمل

لا يمكننا أن نقول، دون أن نخطئ ضدّ الإيمان، ان

الشرّ يأتي من الله، فلا الحياة تلد الموت، ولا الليل يخلق النور، ولا المرض يمنح الصحة. لأنّ الله، الذي هو الخير والصلاح بالذات، لا يمكنه أن يخلق ما هو ضدّه، أي الشرّ.

فإذا لم يكن الشرّ أبديًا ولا آتيًا من الله، فمن الذي أوجده يا ترى؟ الشرّ موجود، ونحن نراه كل يوم.

الجواب الصحيح هو انّ الشرّ ليس حقيقة حيّة، بل هو ارتياح النفس لأمر يخالف الفضيلة، وهو نتيجة رفضنا للخير وتساهل وتهاون منا. فلا نبحث عن الشرّ خارجًا عنّا. في أعماقنا تكمن طبيعةً أولى فاسدة، فعلى كل إنسان أن يُقر انه هو أصل الرداءة التي فيه. ثمّ إنّ ما يحدث لنا من أمور سيّئة، منها ما هو نتيجة طبيعية محتّمة كالشيخوخة والأمراض، ومنها ما يحدث صدفة كالأحداث غير المنتظرة.

إنّ بعضها يحزننا والبعض الآخر يفرّحنا، كاكتشاف كنز أو عضّة كلب. وثمّة أمور أخرى تتعلق بنا كالتسلط على أهوائنا، وقمع دواعي اللذّة فينا، وكبح الغضب، وتهديد من شتمنا، وقول الصدق أو الكذب، وحسن الخُلق وهدوء

مغبوط لأنه يؤجج نار التوبة، واشتهاءً عارمًا للفرح المعطى من الله، فرح النعمة الإلهية التي هي نور الله الشافي. هذه هي خطوات المؤمن الأولى نحو استعادة الحياة في الله من خلال معاينة نور التجلّي، نحو الغبطة التي تفوق حتى ما كان عليه القديس سمعان اللاهوتي الجديد.

+ **نتائج الشفاء الروحي:** عندما يزيل المؤمن عن ذهنه أدران الخطيئة، ملتحمًا بالله في قلبه، يمتلىء كيانه بالهدوء السلامي (الذي بسببه يُسمى تعليم بالاماس بالهدوئية)، ويمسي بالتالي منفتحًا على مواهب الروح التي تراها حكمة الله له. لكنه وقبل كل شيء يصبح ينبوع حب للأقربين والأبعدين، للطبيعة وما فيها، وحتى للتراب الذي تطأه قدماه. هذا المؤمن يتأله لأنه يصبح «مسيحًا صغيرًا» في المسيح يسوع، متفاعلاً بالنعمة مع قوى الثالوث القدوس، لا لنفسه وحسب، بل لكل مَن حوله. الإنسان الممتلىء من الله يشع نور الله على أترابه، فيغتبط به المؤمنون ويستنير به الضالون. كل مؤمن أتحد ذاته بالمسيح يشرق نورًا في الكون كله، لأنه يمهدّ الدرب للحب الإلهي ويصير مصدر فرح وتعزية لكل حزينٍ ومجروح.

دور الملائكة في الخلاص

الخلاص هو ثمرة حب الله للإنسان، حب مجاني رغم جحود الإنسان. أراد آدم الأول أن يزكي ذاته مترنمًا بمجد ذاته، فسقط نحو جب الفساد. لكن إرادة الله ومجده هما حياة الإنسان. لهذا انحدر العلي نحو الضعف البشري، وحمل الطبيعة البشرية الفاسدة ما عدا الخطيئة، ورفعها نحو مجده الإلهي، فكان المسيح يسوع، آدم الثاني، الطريق المؤدية إلى الملكوت.

اشتركت كائنات أخرى حية (الملائكة) بالخلاص المُعَدّ للإنسان، من خلال خدمة السر الخلاصي. الملائكة كائنات عاقلة مُحِبّة، خلقها الله لخدمة الإنسان. لكل منا ملاكه الحارس الواقف أمام الله يعاينه ويتشفع بنا أمامه (متى ١٨:١٠). لهذا رتبت الكنيسة المقدسة أن نطلب شفاعة ملاكنا الحارس وحمايته في صلاة خاصة: «إفشين الملاك الحارس»، نرددها في نهاية صلاة النوم الصغرى، وأيضًا من خلال قانون خاص للملاك الحارس.

دور الملائكة في خدمة السر الإلهي، الخلاص، كان من خلال الإعلانات الإلهية والنبوءات التي تمت بالمسيح يسوع. نقرأ في إنجيل لوقا (١:٢٦–٣٨) أن الملاك جبرائيل بشر العذراء مريم بالحبل بالمولود الإلهي من الروح القدس. وفي إنجيل متى (١:٢٠–٢٣) نقرأ عن ظهور ملاك الرب ليوسف في الحلم قائلاً له «لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس». وهو الذي حذر يوسف من هيرودس الذي أراد قتل الطفل المولود من مريم، وأرشده إلى الذهاب إلى مصر (مت٢:١٣) والعودة منها (مت٢:١٩–٢٠). وملائكة خدموا الرب في الجبل بعد تجربة الشيطان له (مت٤:١١). وملاك شدده على جبل الزيتون ليلة تسليم يهوذا له بقبلة غاشة (لوقا٢٢:٤٣). كذلك ظهر ملاكان بهيئة رجلين بثياب براقة مبشرين النسوة حاملات الطيب بقيامة المخلّص (لوقا٢٤:٤). وفي يوم صعود الرب القائم من بين الأموات إلى السماوات ظهر أيضًا رجلان بلباس أبيض بشّرا التلاميذ أن يسوع الذي ارتفع إلى السماء سيأتي في

اليوم الأخير هكذا أيضًا من السماء (أعمال ١:١٠-١١). وملائكةٌ أيضًا ستعلنُ في اليوم الأخير عن مجيءِ المسيحِ للدينونة العامة (١تسا ١٦:٤). ومن يقرأ كتاب رؤيا يوحنا في العهد الجديد يكتشف أكثر فأكثر دور الملائكة في الحفاظ على نفوس الأبرار والصدّيقين وفي إعلان يوم الرب، يوم الدينونة العظيم.

خدم الملائكة سر الخلاص أيضًا في أحضان الكنيسة من خلال مساعدة الرسل في بشارتهم وتحريرهم مراتٍ كثيرة من السجون ليُكملوا عملهم الكرازي، مظهرين قدرة العليّ ومعلنين اسم يسوع، الرب القائم من بين الأموات، لكل الخليقة.

للملائكة دورٌ في خدمة سر الخلاص كما نحن البشر، لأن الذي يحيا بحسب وصايا الله مبشّراً بها في حياته هو أيضًا خادم لسرّ الخلاص. خدمة السرّ الإلهي تكمن في إعلان الخلاص وجذب آخرين له. هذا هو معنى أن يكون الملائكة والبشر خدّامًا لسر الله. ألا جعلنا الله طاهرين في اقتبال الخلاص والمشاركة في نقله بنقائه لنكون رسلاً حقيقيين للمسيح.

روما واليونان

قام وفد من مطارنة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية برئاسة متروبوليت Attica المطران بندلايمون، بزيارة روما في ١١ آذار ٢٠٠٢ ولقاء قداسة البابا يوحنا بولس الثاني. يأتي هذا اللقاء ضمن سلسلة لقاءات يقوم بها الفاتيكان مع مختلف الكنائس لبحث التطورات الحاصلة في الاتحاد الأوروبي بما يخص هوية أوروبا المسيحية. وقد أعلن المتروبوليت بندلايمون بعد الإجتماع ان هذا اللقاء «مرحلة أولى في الجهود لإيجاد القواسم المشتركة للصراع الروحي في أوروبا». وبحسب بيان صحفي أصدرته الكنيسة اليونانية، شدد البابا على انه « علينا ان نواجه مشاكل العالم بطريقة حيوية وإيجابية ونسعى للحلول. علينا واجب نقل الشهادة المسيحية التي ورثناها». كما شدد قداسته على «المسؤولية الخاصة للكنيسة اليونانية، التي حافظت على وديعة الإيمان والحياة المسيحية، وهي مصدر غنى استقت منه الكنيسة الغربية الليتورجيا والروحانية والنظام القانوني الداخلي». وأضاف انه «علينا ان نعمّق التعاون والعمل معًا لكي نعلن بقوة صوت الإنجيل ضمن أوروبا».

وقد نقل المتروبوليت بندلايمون رسالة من رئيس أساقفة اليونان خريستوذولس إلى البابا جاء فيها: «دون اهمال الحقائق العقائدية والتعاليم التي تفرقنا وتقف عائقًا أمام شركتنا وصلاتنا المشتركة، نحن في موقع يجب ان نتعاون فيه على المستوى الإجتماعي والثقافي والتربوي والبيئي والاخلاقي - الطبي لما فيه مصلحة البشرية».

بعد اللقاء مع البابا التقى الوفد الكاردينال Ratzinger، رئيس لجنة التربية المسيحية في الفاتيكان، وسلمه رسالة من رئيس الأساقفة خريستوذولس. وقد عبّر الكاردينال عن سروره باللقاء وشدد على أهمية تعاون الكنيستين في مواجهة المسائل المشتركة التي تهم المجتمعات المعاصرة. أما المتروبوليت بندلايمون فقال ان لجانًا كثيرة قد أُنشئت منذ تولي رئيس الأساقفة خريستوذولس رئاسة الكنيسة اليونانية، لمعالجة مسائل الإيمان والمشاكل الإجتماعية المعاصرة، وشدد على ضرورة تبادل الخبرات لمواجهتها.

الطبع، أو الكِبَر والاعجاب فلا تبحث طويلاً، فعلى قدر ما تتسلّط على نفسك يكون الشرّ خارجًا عنك. واعلم هذا، إنّ أصل الخباثة الحقيقي هو استسلامك لضعفك بحريتك. ولو لم يكن الأمر كذلك، لما أمكن سنّ شرائع، ولا جاز إقامة محاكم ومعاقبة مجرمين.

ولا حاجة لنا أن نقول أكثر من هذا عن الشرّ نفسه. إنّ المرض والفقر وضعة المقام وكلّ ما يمكن أن يحلّ بنا من الشرور المزعجة، فليس من الصواب أن نعدّه شرًّا جوهريًا، لأنّ الخير الكامل لا يقوم في ضدّه، ثمّ إنّ بعض المحن متعلّق بمزاج طبعنا المتغيّر، والبعض الآخر فيه مصلحة حقيقية.

الحياة هي طريق يسلكه الإنسان للوصول إلى الغاية التي رتّبها الله له. فكلّنا مسافرون نمخر عباب بحر هذا العالم تاركين الرياح تجري بنا كما تشاء، حتى نصل بهدوء وسلام إلى الميناء الهادئ. فالحياة تمضي بنا بخطى ثابتة، دون أن نشعر بها أحيانًا، نحو الغاية التي يريدها الله من كل إنسان.

القديس باسيليوس الكبير